من قصص الثورة السورية

ـ تحقيق د. قتيبة الشهابي ـ

أحداث عاشها والدي المرحوم المجاهد المحامي الأمير أحمد الشهابي[1]، في غوطة دمشق أثناء الثورة السورية الكبرى خلال السنوات ١٩٢٥ - ١٩٢٧م، وفيها يروي ملاحم البطولة ونضال الثوار ضدّ قوات الاحتلال الفرنسي.

وقد نشرها المرحوم الدكتور شكيب الجابري[2] تباعاً في مجلته "أصداء" التي كان يصدرها بدمشق عام ١٩٤٤م.

وإنني من منطلق الوفاء، شيمة كل عربي، أكرر نشرها هنا لتطلع عليها الأجيال الجديدة فتتفاخر بأبطالها، وترفع جبينها بأحداثها، وتكبر مآثرهم وتضحياتهم.

ـ القصة الأولى ـ

كيف اشتركت في الثورة

من حق القرّاء الأعزاء أن يعرفوا "قصتي" وأن يرجعوا إلى سنين خلت ليروا شاباً في العشرين من عمره يسير إلى مدرسة الحقوق، والثورة، في أعنف أيامها الملتهبة، ترسم صورها المختلفة، المبهمة، الفتانة، في فكره، ويتردد صدى معاركها في نفسه ويشعر بالحنين إليها قلبهُ، فيدخل قاعة الدروس في الصف الثالث، ذاهلاً عنها منصرفاً إلى التفكير العميق في مصير الأمة، والثورة، والبلاد.

كنت إذا قصفت المدافع ونحن أثناء الدرس، أقف مذعوراً، بدافع لا شعوري، لأعترض على الاستاذ صارخاً: ما قيمة هذه الدروس الغالية في أمة لا تملك حرّيتها، وضاق أستاذي صدره فقال: أو تريد أن تنجح الثورة ليحكمنا حسن الخرّاط[3] ؟ وكأن خنجراً مسموماً طعن به قلبي فاندفعت مجنوناً أجيبه: لم يكن

محمد علي باشا الكبير في أول حياته خيراً من حسن الخرّاط ومع ذلك أسّس دولة وقاد شعباً وخلق أمّة، والخير لنا ألف مرّة أن يحكمنا حسن الخرّاط وإخوانه من أن يحكمنا "المتمدّنون من أبناء فرنسة ومطاياهم".

وذعر الاستاذ وقال: انتبه فللحيطان آذان صاغية.

قلت: آخر من أفكر بهم أو أهتم لأمرهم هم الجواسيس.

وكان الجواب قاسياً فسكت على مضض، وهكذا كانت حياتي صراعاً عنيفاً بين الواجب الوطني أرى لزاماً علي وعلى كل شاب أن يؤديه في ساحة الجهاد، وبين الواجب الشخصي في ضبط النفس ريثما ينتهي العام الدراسي فأنال شهادة الحقوق، وطبيعي أن يتغلب الواجب الوطني وأن أفكر تفكيراً جدياً في حمل جميع الطلاب في مدرسة الحقوق على الاشتراك في الثورة، فرحت أحدثهم على انفراد، وأحاول إقناعهم، ولكنني كنت أصطدم دائماً بجواب واحد أننا لا نستطيع أن نعمل عملاً، والمجاهد غير المتعلم يحسن الرماية خيراً منا، ونحن هنا نفيد الوطن أكثر مما نفيده في الثورة، وشهادة الحقوق تضيع من أيدينا فنخسر ولا نفيد الوطن.

هذه هي "الكليشة" التي تعلموها جميعاً من أمثال أستاذنا الذي ذكرناه، وهذا هو المنطق الذي كان يجيبنا عليه عندما يلعلع صوت الرصاص في الغوطة، فنقطع الدرس لنتحدث عن الثورة وضرورة اشتراكنا فيها، وهذا ما دعاني في إحدى قصائدي في أيام الثورة إلى القول:

لست أدري إذ قمت فيهم أنادي ولظـــاه يجتـــاح كـــل وادي
إقحموا الحرب يا شباب البلاد أي شيء قد راع رهط النوادي
كيف ناموا في ظل الاستعباد

وفي صباح أحد الأيام فوجئنا باحتلال مدرسة الحقوق من قبل الجيش الفرنسي، وكانت الغاية إغلاق المدرسة، فانتقلنا إلى بيت مديرها عبد القادر بك العظم[٤] في سوق ساروجة واتّخذناه مدرسة، وأردنا الاحتجاج فاجتمعنا نتداول في الأمر، وكان المفوّض السامي السيد (دو جوفنيل)[٥] يصرّح منذ تعيينه في باريس

إلى أن وصل إلى بيروت في كل مناسبة بكلمته المشهورة (الحرب لمن يريد الحرب والسلم لمن يريد السلم) حتى ذهبت مثلاً. وبينما نحن نبحث في الاحتجاج وكان المرحوم عمر نبهان جالساً معنا، قلت: إننا نرسل برقية شديدة اللهجة إلى المفوّض السامي احتجاجاً على هذا الاحتلال الذي خرق حرمة العلم، فأجابني عمر رحمه الله على الفور: سيأتيك الجواب حالاً: دمشق – أحمد الشهابي – الحرب لمن يريد الحرب والسلم لمن يريد السلم.

ولا نزال نذكر كلمة طيبة لأستاذنا العلامة فارس بك الخوري[٦] عندما انتقلنا إلى بيت الاستاذ عبد القادر بك العظم كما أسلفت، ذلك أن الصحف كانت تذكر كل يوم في أخبارها أنباء عن "رصاصة طائشة" أصابت أشخاصاً هنا وهناك في المدينة، لأن الجند كانوا يحتلون كل مكان مرتفع في المدينة، فلما دخل فارس بك إلى الغرفة وكانت علوية رأى من نوافذها عندما جلس على مقعد التدريس جنوداً من الجيش على أسوار قلعة دمشق، فصاح بنا: هيا إلى الطابق الأرضي فلست على استعداد لتلقي "رصاصة طائشة" فقلنا: ولكنك يا أستاذ في حرز أمين منها!! فأجاب: لو أن الرصاصة الطائشة تصيب الطائشين لما خشيت منها أمّا وأنها تصيب غير الطائشين فتفضّلوا، ثم خرج ونزلنا وراءه إلى الطابق الأرضي.

لم يكن لي ثقة بأحد أفضي إليه بعزمي الاشتراك في الثورة، فحزمت أمري وسرت إلى محطة القطار ليوصلني إلى بيروت ومنها إلى صيدا فمرجعيون فحاصبيا[٧] وقد احتلها الثوار، وأخذتني سنة من النوم وأنا أنتظر القطار ليلاً فرأيت أمي وأبي، يبكيان، وقد هرما وفقدا البصر، فنهضت مذعوراً وعدت إلى البيت قبل موعد القطار وأنا أرتعد من هذه الرؤيا، ثم بعد أيام شددت عزائمي وسافرت إلى صيدا ومنها إلى مرجعيون، وقبل وصولي إليها بكيلومترين، منعني الجند من دخولها رغم كل المحاولات ورغم أني زعمت بأنني مرسل لقائدها بأمر خطير. عدت إلى دمشق فرأيت إخواني قد حسبوني ذهبت، للغوطة وعدت، فراحوا يسألوني عن الثورة وأحوالها.

ثم اتّفقت مع الإخوان: صبري العسلي[٨] ونسيب شهاب[٩]، وخليل الحموي وفائق العسلي[١٠]، وخليل الخانجي على الاشتراك في الثورة، وتواعدنا على يوم نذهب فيه لحيّ الميدان ومن هناك إلى ميدان الجهاد، وصدف أن الأخ صبري العسلي (أبا شجاع) أفضى بهذا الأمر إلى عمّي الأمير فائز الشهابي[١١]، وكان يريد أن أتمم السنة الدراسية وأنال شهادة الحقوق لأنه مسؤول أدبياً عن ذلك تجاه والدي الموجود يومئذ في مدينة حماة، فرجاه عمّي أن لا يمكّنني من مرافقتهم، ولمّا أفهمه (أبو شجاع) أن الاتفاق تمّ والموعد تعيّن أشار عليه بتغيير الموعد، فقبل رأيه سامحه الله، وصدف أن لقيت (أبا شجاع) ذاهباً بمفرده نحو حيّ الميدان قبل الموعد بيومين ولمّا استوضحته أجاب إنني ذاهب لأهيئ ما يلزم لبعد غد، فسرت معه مسافة طويلة ثم تركته، وأنا لا أعلم أني أودّعه.

ولمّا علمت بذهابهم قررت أن أضاعف جهودي مع طلاب الحقوق فنجحت بإقناع الإخوان سيف الدين المأمون[١٢] وجمال الجابي وعادل حتاحت[١٣] من رفاق السنة الثالثة. واجتمعنا في بيت الأخ حتاحت نتداول نهائياً في الموضوع وإذا بي أسمع أقوالاً عن فتورٍ في الهمّة وتراجع عمّا اعتزمناه، فدافعت وحاولت، لكنهم تراجعوا نهائياً وكانت أقوى حججهم هي أننا لا نستطيع العيش كما يعيش المجاهدون. وقال أحدهم مازحاً أو جاداً، لا أدري، أنا إن سمعت صوت الرصاص عن بعد، لا تعود ركبتاي تقوى على حملي، فإلى أين تريد أن تأخذنا!!!؟

خرجت والدنيا في نظري سوداء فاحمه، وما ان توسّطت شارع السنجقدار[١٤] حتى صاح شاب يحمل على كتفه (بلطة): ألا تعطيني أجرة الحطب يا أفندي؟

نظرت إليه فإذا هو "عليّ" شاب من زملكا من المجاهدين في حرس القيادة، وهذه الكلمة متّفق عليها بيننا، فقلت له: تعال لأعطيك الأجرة، وسرت وسار ورائي إلى مكتبة الأخ المحامي السيد عبد المجيد الهريسي، وكانت مركز توزيع رسائل الثورة، ومقرّ "الإخوان" وقد نال منها كثيراً من الآلام فيما بعد، فطلبت منه الرسالة وكانت من القائد، وبها يطلب بعض الحاجيات والتقارير، ويستعلم عن بعض الأمور.

وكان المرحوم الزعيم الشهبندر [د. عبد الرحمن][١٥] قد جاء إلى الغوطة وكتب إليّ رسالة مطوّلة يطلب فيها بالحاح أن أظلّ في دمشق، لأقوم بما أنا مكلّف به من خدمات كثيرة للثورة، وكان القائد في كتابه يلحّ أيضاً بضرورة بقائي، ذلك لأني كنت دائماً أكتب إليهم بعزمي على الاشتراك في الثورة.

وفي ذلك اليوم عزمت عزماً قاطعاً وقلت "لعليّ" انتظرني فسأكون بذاتي الجواب على الرسالة. وخرجت من البيت وفي جيبي ليرة ذهبية واحدة، فمررت بالخان وأخذت الحصان الذي أعددت، وسار بي "عليّ" وأنا وراءه بعد أن لبست عدداً وفيراً من الثياب الداخلية، بعضها فوق بعض، ولففت جسمي بكوفيتين وعقالين، ووضعت في جيوبي "المناديل والجوارب"، وارتديت "البدلة" الكحلية التي كانت قد أعدّت لحفلة الشهادة حتى لا أثير شكوك رجال الدرك والجيش الفرنسي المرابطين عند الباب الشرقي للمدينة، ولم أودّع أحداً أو أقل لأحد أنني ذاهب للثورة، وكانت الخطيئة فادحة قد تؤدي إلى الموت لو فُتّشت ثيابي لأنها كانت مريبة، ولكن رجال الجيش الفرنسي كانوا مشغولين في استجواب أحد القرويين، ورآني رجال الدرك فخدعهم مظهري وقلت انني أحد البكوات [بك] من آل العظم ذاهب لبستاني وسأعود عمّا قليل، ونظروا إلى هذا الفارس المزيّف، بدلة جديدة رسمية، وحذاء لمّاع، وعصا جميلة وثمينة، وطربوش جديد يمتطي صهوة الجواد.

وضحكوا وحقّ لهم، ولكنني ضحكت أكثر منهم عندما أجبتهم: لن أتأخّر، حسب طلبكم عن الساعة السادسة مساء حتى لا تمنعوني من المرور.

ـ القصة الثانية ـ

إبراهيم المغربي

أنا في جبل الدروز، جبل العرب كما اتّفق على تسميته بحقّ تمجيداً لأبنائه الأشاوس والأبطال المغاوير. الطبيعة ضاحكة بخضرتها، باكية على أطلال هي البقية الباقية من آثار بني معروف الذين يرفرف مجدهم على الأحجار المتناثرة

شاهداً على الإباء، دليلاً على العزّة القومية الثائرة، أطاعوا الأمر فتحطموا على مواطن الإباء، ولبّوا نداء العروبة فماتوا في ديار الجدود.

في قرية "المشنّف"[١٦] في ربيع عام ١٩٢٦، في "مضافة" شيخنا الوقور والتي لم يبق منها غير غرفة واحدة تحيط بها الخرائب، إنها آثار القنابل خالدة على الدهر، جلسنا نستمع إلى الحديث العذب: حديث الشهامة والبطولة، يرويه لنا في لهجته القاسية ونبراته القوية، ويده تعبث في لحيته المهيبة الوقورة، إلى أحاديث القتال والدمار وترحيل العيال، إلى "الصفاء"[١٧] إلى التلال الصخرية شرقي الجبل، خشية الموت من القنابل، أمّا نحن الرجال وأطفالنا الكبار، فهنا، صامدون للحوادث، ثابتون على العهد، نقاتل يا سيدي، بكل ما نملك إلى أن ننال حريتنا وتعود بلادنا إلى مجدها وعزّها، هذا "هايل" أصغر أولادي، إن له من العمر تسعة أعوام يلازمني في البيت بينما اخوته الثلاثة في صفوف إخوانهم: يقاتلون. إن سلّمهم الله حمدته وشكرته، وإن استشهد أحد منهم قلت الحمد لله الذي شرّفني باستشهاده ."!!

وسكت الشيخ لحظة خيّم فيها التفكير الأليم، وقطعتها بمداعبة "هايل": مالك تتخلف عن المعركة وقد اشتدّ ساعدك!؟

فانتفض، وكان هائلاً حقاً عندما لمعت عيناه ببريق لن أنساه، هو مزيج من الكبرياء والأنفة والاعتداد بالنفس، وأجابني بلهجته الجميلة: "شايف! إسّا لما بيروحوا عالشرّ[١٨] بيصير قلبي ينط قدّامهم..لكن ما بيخلّونيش، قال أنا صغير، وحقّ الله بهجم عالدبّابة ومابخاف!!" ثم تنهّد من أعماق نفسه، وكأنه يصبّ نقمته على الزمن الذي يدور ببطء فلا يسرع ليصبح في عداد الشباب.

ولحظت في الباب شبحاً، فالتفت فإذا جندي من جنود المغرب، وقبل أن أصوب مسدسي إليه قال: السلام عليكم!

ــ وعليكم السلام، من أنت؟ إرفع يديك!!

ــ لا تخشوا فأنا أعزل من السلاح، جئت أنضمّ إلى صفوفكم فاقبلوني.

ودخل الجندي بلباسه العسكري، وكان أسمر اللون، قصير القامة، تخطى الأربعين من عمره، في نظراته عمق وصدق، وفي قسمات وجهه رجولة وعزم، إنه مغربي من الجزائر أو مراكش أو تونس، لم أعد أذكر.

قدّمنا له ما تيسّر من الطعام، فأكل بأدب وحياء، وحمد الله وشكره، ثم جلس إلى جانبي ورأيت الإعياء بادياً عليه: "إنني لم أنم ليلتي كلها يا مولاي وأنا أقطع المسافات الطويلة، في شعاب السويداء على غير هدى، واعترضتني جماعة من البدو فاشتريت نفسي بسلاحي، سألتهم عن الطريق إلى منطقة الثورة فأشاروا إلى هذه الوجهة، سرت في القفر الموحش لا أسمع غير عواء الذئاب، فصرخت في وجهها: إنني عربي أذهب لأقاتل مع إخواني العرب !! فخلت لي الطريق منسحبة عنه، فمررت بينها أرتعد خوفاً لأنني أعزل من السلاح وقد أخذ البدو مني المكحلة [البندقية].

قلت من أنت، وما دعاك، وأنت على ما تعلم من شدّتنا؟ قال: اسمي إبراهيم وأنا من المغرب، وصلت إلى رتبة (جاويش) في الخيالة، وكنت مع فرقتي في السويداء أفكّر في هذه الثورة العربية، فثارت ذكريات الجدود في نفسي، وغلت دمائي العربية في عروقي فما استطعت صبراً، تركت السويداء سرّاً وسرت إليكم، مخلصاً في انضمامي مقسماً بشرف العرب على صدق عواطفي.

ورحلت به إلى الغوطة، وكان معي سلاح فأخذ مني البندقية لاعتياده حملها وقال: والله يا سيدي هذه المكحلة أحسن ما أعرف استعماله من أنواع السلاح، ولكني أرجوك ألبسني ثوباً عربياً لا عسكرياً خشية الخطأ، فلا أريد أن أموت بيد عربية تظنني من جنود الأعداء.

وابتعت له لباساً عربياً، وكان فرحه بالغاً، لقد خُلق خلقاً جديداً، وبدا إنساناً غير ما عرفناه، تغيّرت سحنته القاسية، ونظرته الحزينة، تبدّل تقطيبه وعبوسه، صار يمزح ويضحك مع رفاقه من المجاهدين، كأنه في العشرين من عمره، وراح يسأل عن الثورة وأهدافها: عن قادتها وزعمائها، عن أسلوب القتال، عن طراز المعيشة، وكان يضحك من أعماق قلبه سروراً وابتهاجاً لكل ما يسمع. وسمعته يقول لهم: إنكم تقاتلون في دياركم وتذودون عن حماها وما كان أشقاني! أمّا اليوم فما أسعدني إن كُتب لي شرف الشهادة، وسأريكم في أول معركة كيف يحارب العربي، وكيف يموت البطل الشجاع.

وصلنا إلى الغوطة بعد يومين، فقدّمته إلى القائد العام للغوطة المرحوم مصطفى وصفي السمّان[١٩]، طيّب الله ثراه، فأكرم وفادته وجعله من الحرس الخاص.

وخاض إبراهيم غمار المعركة الأولى، وأشهد أنني رأيت منه بطولة لا توصف، وشجاعة صغرنا أمام عظمتها، وأصيبت بندقيته بشظية من قنبلة كسرتها نصفين، فنهض والرصاص كالمطر المدرار، يلوّح بها يودّ الهجوم، كأن مسّاً من الجنون أصابه، وألهف نفسي. شظية ثانية تصيب ركبته فيتدفّق الدم الطاهر منها. أسرعت إليه واحتضنته .. الطبيب بعيد جداً عنا، ربطت له فخذه بكوفيتي عسى ينقطع النزيف، هيهات إنه دخل في دور النزع الأخير، ضممته إلى صدري وناديته مراراً: إبراهيم، إبراهيم جاهد، هززته كثيراً وودتّ لو افتديه بأعزّ ما أملك، وأخيراً فتح عينه للمرة الأخيرة، ونظر إلي بدمعة كبيرة هي أشرف ما عرفت وأنبل، وانفرجت شفتاه قليلاً وتمتم بصوت متقطّع خافت: حاربوا يا إخواننا، حاربوا في سبيل بلادكم وموتوا فيها، خير لكم من أن تموتوا بعيدين عنها كما أموت.

ــ القصة الثالثة ــ

أحدهم ينجو من الموت

طال غيابي عنكم قرائي الأعزاء وكدت أعود إلى سكوتي الماضي فلعل فيه فائدة لكم تستريحون بعدها من قراءة هذه الحوادث التي أصبحت ملك التاريخ وأنتم تريدون أدباً ناضجاً تقرءون فيه فكرة حديثة وجهداً موفقاً ولكن الصديق العزيز الدكتور الجابري [شكيب] الذي كان له الفضل الأول في إطلاق (شيطاني) من قيوده وإفلاته من الأغلال التي كبّلته دهراً طويلاً، ألحّ ثم أرسل علي هذا "الشيطان" يلاحقني كأنني هارب من العدالة، فإذا أنا أعود إلى قبضته وإذا أنا أكتب من جديد، فإذا أحسن الصديق الجابري إليّ فقد يسيء إليكم ولكنه سامحه الله يظن بي خيراً رغم أنفي.

وقبل أن أبدأ الحديث لا بدّ من كلمة توضح مقصدي من كتابة هذه القصص تفسيراً لما يدور في نفس بعض إخواني فقد علمت أنه في حلقة منهم ذكرت "قصص الثورة" فقال بعضهم: لو أن الشهابي يدوّن لنا سيرة المعارك والحروب وما

تخللها من روح الحماسة لكان أجدى. وقال غيرهم: لو ذكر لنا ما حدث في المعارك من براعة وما استعمله الثوار من حيل وقاموا به من جهود إذاً لقرأناها متحمسين.

أمّا أن أدوّن لكم المعارك وسير الحروب فقد سبقني إلى ذلك كثير من الإخوان حتى أصبحت مروية معروفة لم يترك الرواة فيها مجالاً لقول. فرأيت أن أطلعكم على أخبار لم تدوّن ولم تنشر بين الناس إلا قليلاً.

أمّا أن أسجّل لكم البراعة في إدارة المعارك والحيل التي كان يستعملها الثوار فاسمحوا لي بصراحة أن أقول لكم: كنا في الثورة بعد كل معركة ننتصر فيها نسأل بعضنا بعضاً: كيف انتصرنا!!؟

وكان الجواب الصحيح: ان الله هو رئيس أركان حربنا، هذا الجواب الذي أسوقه إليكم لأدلكم على البراعة... والحيل... والأساليب... على أن هذا لا يعني أن الثورة قد خلت من جهود شخصية وعبقرات فذّة وتضحيات جسيمة وابتكارات غريبة وأساليب آية في البراعة وحيل طريفة وظريفة سنأتي على ذكرها كلما مررنا بها، لا لنقف عندها فنكيل المديح والإطراء بل لنذكرها ونمشي فهي عندنا كما هي عند غيرنا من الأمم، وهي من طبيعة الثورات والنهضات بل من مستلزمان كل تطوّر عنيف عند كل شعب يشقّ طريقه إلى الحرية بين الحديد والنار.

على أني لو ذهبت استغل الظروف وانتزع التصفيق في سرد أخبار الثورة بقالب عاطفي لاهب لما استطعت أن أرضي جميع القراء الأعزاء ولما أرضيت عاطفتي التي دفعتني للكتابة فأنا لا أكتب هذه القصص لألهب العواطف واستثير المشاعر، ولكنني أدوّن للحقيقة والتاريخ ما رأيته وما سمعته وما وقع لي أو لسواي مما يستحق أن يدوّن، من حوادث وأخبار.

فأنا أسجّل بأمانة العيشة التي كنا نعيشها وأصور الحياة التي كانت تفرض نفسها فرضاً على الثوار وأعطيكم أصدق وصف لما كنا فيه من شقاء أو نعيم.

والحوادث التي أسوقها إليكم في "المعجزات الثلاث" وقعت لثلاثة من شبابنا فقد تلقاهم الموت بيده الحديدية وأفلتوا منه بمعجزة خارقة تكاد أن يحسبها القارىء حديث خرافة.

الأولى حادثة الأخ الكريم معالي وزير الداخلية في "جبّاتا الخشب"[٢٠] يوم استشهاد المرحوم أحمد مريود[٢١] وشباب آل العسلي الأشاوس.

في شهر مايس من عام ١٩٢٦ جاء إلى الغوطة الأمير عادل أرسلان[٢٢] ومعه الشهيد العظيم أحمد مريود على رأس قوة من الثوار. وكان هدفهم منطقة القنيطرة[٢٣] وضواحيها.. ذهبوا إليها وقد رافقهم عدد غير قليل من زعماء الثورة من الغوطة بينهم الأخ صبري العسلي وإخوانه وأبناء عمّه يريدون أن يعملوا عملاً رائعاً في إقناع رجال الجركس [الشراكسة] المتطوعين في الجيش الفرنسي وغير المتطوعين لمساعدة الثورة في انسحابهم من الجيش.

ووصلوا إلى "جبّاتا الخشب" معقل الزعيم أحمد مريود وبدأ العمل الجدّي لما جاءوا من أجله واهتزّت المناطق المجاورة لنزول جيش الثورة في هذا الإقليم الحصين ولاح نجم النصر متلألئاً وكانت الرسائل ترد من كل صوب: نحن على استعداد بانتظار الإشارة، حتى أن "زحلة"[٢٤] على بعدها عن هذه المنطقة، كتبت للشهيد المرحوم أحمد مريود، ترجوه أن لا يقترب منها خشية تدميرها وهي على استعداد لتقديم ما يفرضه مما دعى الشهيد الكريم فائق العسلي أن يكتب إلى الغوطة قائلاً: الآن عرفت الزعامة الحقيقية من الزعامات المزيفة.

وطبيعي أن يقلق الفرنسيون لهذه الأخبار، وأن يلمسوا الروح تضطرم في النفوس تكاد تنفجر ثورة جديدة في تلك البقاع فيأخذوا للأمر عدّته، ويتأهبوا، ليفاجئوا الثورة في معقلها.

وكان الأمير عادل أرسلان في قرية "حَضَرَ"[٢٥] مع قسم من المجاهدين، وفي "جباتا الخشب" معظم زعماء الغوطة.

وعند الفجر، داهموها في غفلة من أعين الحراس، وأفاق المجاهدون مذعورين على صوت الرصاص يدوي في أزقة القرية وكان صراعاً عنيفاً غذاؤه الأرواح بيعت بيع السماح، والمهج تسابقت لورود الردى فسقط الشهيد العظيم أحمد مريود يذود عن حياضه قرب بيادر القرية، بينما كانت المعركة تدور رحاها،

والنفوس الأبية تسيل على حدّ الظبا في سبيل المثل الأعلى، والوطن المفدى، في هذه اللحظة كان صبري العسلي وأبناء عمه بين أزقة القرية يهاجمون ويدافعون فإذا بشرذمة من جنود الجركس تفاجئهم صدراً لصدر وإذا البنادق والمسدسات تصوّب من الفريقين وإذا بالشهيد المبرور "حكمت العسلي"[٢٦] رجل الإقدام والوطنية الصامتة العاملة يسقط صريعاً، وإذا بمعالي الأخ صبري بك العسلي يفاجيء الجنود بصوت فيه نغمة الآمر ونبرات التأنيب: "مات هذا، أنقتل بعضنا بعضاً والفجر لم يلح بعد "!؟

وخدعوا بالحيلة البارعة ينتزعها من أعماق القلب الحزين على فقد ابن عمه، في موقف من أروع المواقف وأعظمها حرجاً وخطورة، وولوا قائلين: لماذا لم تقل لنا أنكم منا!؟

وإذا به ينحني في احترام على الشهيد ليحمله على ظهره موصياً المرحوم "فائق العسلي" أن يحمي ظهره، وما أن يسير في الزقاق طويلاً حتى يشعر أن المرحوم "حكمت" لا تزال فيه بقية من روح فيضعه في الأرض ليتحقق الأمر فإذا بالجريح يقول له: يا ابن عمي، انج بنفسك، ولا تعرّضها للهلاك من أجلي، ثم يلفظ النفس الطاهر الأخير بين أنّات الأسى وزفرات الألم، وبين أزيز الرصاص ولعلعة المدافع في معمعان المعركة وشدة هولها.

ويسير إلى آخر الزقاق بعد أن وضع الشهيد داخل أحد البيوت فإذا بالموت، مرة ثانية، يسرع إليه، وإذا به وجهاً لوجه مع نفر من آخر من الجند يخرجون من زقاق معارض فصوّب مسدسه الذي لم يخذله إلا هذه المرة حتى تُحرم الأمّة من "فائق العسلي".

صوّب المسدس إلى صدر أول جندي فلم تنطلق الرصاصة وانطلقت رصاصة الجندي لتردي شهيد الشباب وزينة الشباب "فائق العسلي".

وإذا بالأخ صبري بك يفيق من هول الصدمة الفاجعة على أيدي الجنود تقبض عليه وتسلبه سلاحه ودراهمه وأوراقه، وللمرة الثانية ينتزع من الموت المحتّم قوة ليدافع بها الموت ويصرخ في الجنود، وقد عرفوه حق المعرفة: نعم أنا

فلان، إن كنتم تطمعون في مال فهذا كتاب أكتبه لتقبضوا بموجبه ما شئتم من المال من القنيطرة بعد ساعتين.

وأراد بعضهم ذلك ورفض الآخرون، وكانت هذه كلمة كافية لأن يختلفوا اختلافاً كبيراً. قسم يريد أن يأخذ الفدية، والآخر يريد من تسليمه للضباط الفرنسيين الرتب والألقاب، واستعر الخلاف بين الفريقين فتضاربا وشهرا السلاح، وكان "أبو شجاع" بارعاً جداً في اغتنام هذه الفرصة النادرة، ليفلت من أيديهم، مسرعاً بين الأزقة حتى يصل إلى آخر القرية من الغرب ويدخل في الحرج ثم يختبئ بين أدغاله بينما كان الجنود يقتفون أثره وقد هالهم إفلاته وخافوا وشاية بعضهم على بعض فراحوا يطلقون النار في الحرج ويطوفونه، ولكن عين العناية الإلهية الساهرة شاءت أن تبقي لهذه العائلة الكريمة "أبا شجاع" وأن تحفظه.

ـــ القصة الرابعة ـــ

خمس رصاصات في الدماغ

لعل حادثة المجاهد السيد نظير النشواتي أو النشيواتي[٢٧] هي نسيج لوحدها منذ زمن بعيد إلى اليوم بل يجوز لنا أن نضعها بين الأساطير التي يحكم العقل السليم للوهلة الأولى أن وقوعها غير مسلّم به أو أنها قصة وضعت لتروى للأطفال تشجيعاً لإذكاء النار الوطنية في قلوبهم.

لكن حادثة قتله ثم حياته ليست وحدها أقرب إلى الخيال من الحقيقة، بل إن حياته مدة الثورة في حمص، وأعماله ومخاطراته كلها سلسلة ممتعة من البطولة والذكاء وضبط النفس وقوة الأعصاب المتّزنة مما تحتاج إلى مؤلف خاص يجب أن يدرسه الشباب في جيلنا الجديد مما نمر به سراعاً في كلمتنا هذه فنحن نروي قصصاً من التاريخ. لذلك كان طبيعياً أن نستعرض هذه الحياة الحافلة بالأعمال المجيدة موجزين.

وإذا ذكرنا نظير النشواتي، كان ديناً في أعناقنا أن نذكر بفخر واعتزاز مدينة ابن الوليد، حمص الخالدة، المجاهدة، المتضامنة تضامناً أدهش الأجنبي وأثار

إعجابه أحياناً، وحنقه ونقمته أحياناً، فقد تحمّلت من الأذى ما لم تتحمله مدينة غيرها في سبيل حماية ابنها البار وإخوانه من مجاهديها الأبرار، ودافعت عنهم دفاع الأبطال وضحّت في سبيلهم كل غال، وزهت بين البلاد السورية بأجمل إكليل من المجد يزيّن مفرقها الوضّاح.

كان نظير وإخوانه في حمص على خير ما تنظّم به عصابة من الثوّار في جميع أعمالها، ما يكاد يقال: فلان جاسوس حتى يقتل، في رابعة النهار، في أهم شوارع المدينة، فإذا انقلبت كل قوى الفرنسيين تفتش وتحقق وتعتقل وتعذب، كان الجواب واحداً من الجميع، الصغير والكبير، المرأة والطفل، الشيخ وابن السبيل: لم نشاهد أحداً، لا نعرف شيئاً، وما كان يبالي واحد منهم بما يناله بعد ذلك، ولتفعل القوة ما تشاء.

هذه آية التضامن الوطني، وهذا هو سرّ الوطنية الصحيحة، في المدينة المعتزّة بأبنائها المجاهدين الأشاوس. كان مستشار لواء حمص إذا قضى السهرة في بيت من بيوت زعمائها صافحه نظير النشواتي، في زي شيخ معمّم مثلاً، وسهر الليل معه واستمع إلى أحاديثه التي كانت تدور حول نظير النشواتي، وكيف وضعت الخطط للقبض عليه حتى إذا انتهى الحديث ولم يبق ما يهمّه صافحه متمنّياً له الظفر على خصمه!؟!

أو قيل: إن قائد الحامية قصد بيت المحافظ، وقصد نظير البيت ودخل وسلّم، والمحافظ يعرفه حق المعرفة، وقدّم نفسه "كمختار" لإحدى القرى وهل يسع المحافظ إلا التصديق على ذلك، وهل يجرأ أن يقول إن نظير النشواتي في بيته؟! ثم استمع إلى أوامر القائد وتعاليمه ببث العيون والأرصاد وتنسّم أخبار نظير النشواتي والقبض عليه إن أمكن وإيصال الأخبار حالاً إليه، حتى إذا انتهت الإرشادات نهض مودّعاً واعداً بأنه سيقوم بتنفيذها بالحرف الواحد!!!

وحمص في ذلك الوقت لم يكن لها شغل غير حماية نظير ورفاقه وتموينهم ومدّهم بكل مساعدة مادية أو معنوية لا تضنّ عليهم بمال أو تضحية.

وحدث أن أوفد قائد الحامية إلى نظير من طلب إليه مقابلته عله يقنعه بالتسليم. فلبى الطلب واجتمع إليه، خارج المدينة، وقد أخذ للأمر عدّته، وانتهى

الحديث إلى عتاب من القائد لنظير بأنه كان يريد اغتياله، فأجابه: أتذكر يا حضرة القائد أنك منذ مدّة دخلت البيت الفلاني في الليل فحيّاك رجل فلاح في مدخل البيت!؟

ــ نعم أذكر ذلك.

ــ هذا أنا، ولو وددت اغتيالك لفعلت.

ثم أتذكر يوم دخلت وزوجتك إلى "المخزن" الفلاني تبتاع منه كذا من الحوائج فاصطدمت وأنت داخل بشيخ معمم فنظرت إليه شذراً، وشتمته بالفرنسية وهممت بضربه!؟

ــ نعم أذكر ذلك جيداً.

ــ كان الشيخ المعمّم نظير النشواتي فلو شئت اغتيالك لما منعني مانع!

وهكذا راح نظير يقص عليه من هذه الحوادث الشيء الكثير حتى ظن القائد أنه يحلم حلماً رائعاً أفاق منه على قول نظير:

ــ نحن العرب، أبطال نحب البطولة، والاغتيال في عرفنا حطّة ونذالة، فكن مطمئناً مهما وشى لك الواشون، إن استطاعتي اغتيالك كل آن ولكنني لن أفعل لأنني عربي!!

* * * * *

إن هذا البطل لخليق أن يوضع بين الأشخاص الخرافيين الذين يروي التاريخ حياتهم في كثير من المبالغة والتهويل، ويحيطها بهالة من البطولة الفذّة والعبقرية الخالدة، ولكننا هنا نروي حياة حقيقية وقصصنا واقعية وهذا ما يزيدها جمالاً ويرفعها إلى درجة البطولة النادرة.

ولهذا أحبته حمص، ووهبته قلبها وأحاطته بعاطفتها، لا فرق فيها بين المسلم والمسيحي، بل ربما كان للمسيحي فيها خطر من التضحية أكثر من المسلم وإليك مثالاً ناطقاً :

طوقت حمص في ليل داهم، وعند الفجر دهم الجند كل منزل يفتشون عن نظير النشواتي، فأين المفرّ ؟ إنهم لا بدّ واجدوه ولن يفلت من هذا الطوق الحديدي اليوم.

ونظير في المدينة، وراح يتنقل من بيت إلى بيت، ومن بئر إلى سطح، والجند يلاحقه، حتى دخل بيتاً اضطر إلى الهرب من أرض داره إلى السطح،

فكانت أكتاف السيدة صاحبة البيت هي السلّم، وهي مسيحية، حامل، نجا نظير من الموت فليس يضيرها حملها بعد ذلك.

وكان ختام المطاردة والنجاة في دار سيدة مسيحية أيضاً، دخلها فإذا بالجند في أثره، ولا مجال للهرب، أخبأته في غرفتها، ثم نزعت ثيابها بسرعة وجلست وراء باب الغرفة تتصنّع الإغتسال، فلما فتح الجند باب الغرفة، صاحت في وجههم: أبلغت بكم الوقاحة أن تدخلوا على النساء العاريات يغتسلن ...!؟

وأنقذت الموقف وارتد الجند وهم لا يعتقدون مطلقاً أن نظيراً مختبئ في مخدع سيدة مسيحية عارية تغتسل، وبهذه التضحية الكبرى وسمو الخلق الوطني نجا نظير النشواتي من موت محقق...

قرائي الأعزاء!

هذه حوادث قدّمتها لكم لنستخلص منها أن من كانت هذه حياته، وهكذا نجاته، وتلك مغامراته، يجب أن تكتب له السلامة من خمس رصاصات سكبت في دماغه، فقد كانت هذه الحادثة من أروع وأغرب ما عرفته الثورة بل ربما كانت من أغرب ما حدث منذ عهود طويلة إلى يومنا هذا.

قبض الفرنسيون على نظير النشواتي ورفاق له من خيرة المجاهدين، بينهم فريق من الشباب المثقّف من حمص وحماة، واقتادهم الجند إلى غربي محطة القطار في حمص ونُفذ الإعدام بهم جميعاً رمياً بالرصاص، رحم الله تلك الأزاهير، إن عبيرها لا يزال فواحاً، وإن أرواحها الطاهرة لا تزال مرفرفة هاتفة بالأحياء: حيّ على الجهاد، حيّ على التضحية في سبيل مجد العرب!! وجاء دور "نظير" فأحكم الضابط تصويب المسدس إلى دماغه واستقرّت رصاصتان منه في الرأس، ترنّح "البطل" يمنة ويسارا، وسقط، فخاف الضابط أن لا يموت فانحنى فوقه فاحصاً ثم صوب المسدس إلى الناحية الثانية من الرأس وأفرغ منه ثلاث رصاصات ثم نهض مرتاح الضمير: لقت مات "نظير النشواتي" فلن يبق في حمص من يزعج الجيش.

وغطّ نظير في نوم طويل وأحسب أنه صعد إلى الجنة ورأى مقامه فيها، وطارت روحه إلى خالقها فاستقبلت كما تستقبل أرواح الشهداء هنيئاً له لقد رأى الموت ولمسه لمساً، وعاش فيه، فخبره حق الخبرة وعرف معناه، ثم استفاق بين الأحياء ليروي لنا الموت بكل صوره وأشكاله، وعاد إلينا ليكون الشخص الوحيد

الذي طالما تمنيناه، فكلنا يرجو أن يجد إنساناً مات ثم عاد ليقص علينا حديث الموت باسهاب وليكشف لنا عن هذا السرّ الرهيب الذي نخشاه من غير أن نراه.

وبعد ساعات، وقد جن الليل وبدا في الأفق، بين الغيوم المتلبّدة هلال يرسل نوراً ضئيلاً من أشعة حزينة على أجساد الشهداء الأخيار فبدا كل منهم في نومه الأخير أكثر إجلالاً وأكبر نفساً من الحياة..في هذه اللحظة، أفاق نظير من غفوته، وفتح عينيه فإذا الدنيا ظلام، يشع فيها قبس من نور. قال لنفسه: أفي عالم الموت أنا أم في دنيا الأحياء؟! أهذا ليل من ليالي الحياة الدنيا؟ أم هو ظلام الردى؟! ولمح القمر فقال: عجباً أفي الآخرة قمر؟ وسمع صوت نفسه فنظر حوله فرأى إخوانه الشهداء فعرف أنه ما يزال حياً من الأحياء، استعاد ما مرّ به في النهار فتذكّر كل شيء، وفيما هو كذلك مرّ بستاني يعود إلى المدينة، وعاد نظير إلى نومه متظاهراً بالموت، من يدري فقد يكون أحد الجنود، أو الضابط الذي قتله، ووصل البستاني يركب حماره إلى قرب الشهداء، فترجّل ليستطلع خبر هذه الأشباح الممدودة فإذا به يعرف قسماً منهم، يقلب هذا ويذكر اسمه راحماً، وذلك متأسفاً، فلما وصل إلى نظير نظر إليه باكياً وضرب بكفّيه: وا أسفاه على شبابك يا نظير يا خير جار!

وعرف نظير جاره، من صوته فتحرّك قليلاً وأن أنة طويلة، فذعر البستاني وقفز إلى الوراء فكلمه نظير بصوت هادىء: لا تخف أنا جريح فاحملني إلى البيت.

وحمله الجار المخلص إلى البيت واستدعى الطبيب فما أن فحص الجراح حتى صاح مدهوشاً: لعلها الحادثة الأولى في العالم أن تنزلق خمس رصاصات على الدماغ فلا تدخل واحدة فيه وتمر كلها تحت الجلد فلا تكسر عظم الجمجمة بل تخرج من الجهة المقابلة، لأن المعروف طبّاً أن في كل مليون حادثة تتزحلق رصاصة عند اصطدامها بالعظم فتسير تحت الجلد فقط لتخرج بعدئذ من جهة ثانية أما أن تتزحلق الرصاصات الخمس في اتجاهين متعاكسين فهذا ما لم يسمع بعد، بل لعلها المعجزة الخارقة.

وبعد شهر أو شهرين، شفيت الجراح وعُرف في المدينة خبر هذه المجزة، فطار صواب الضابط وجن جنونه، وجاء نظير النشواتي، إلى الغوطة في حملة من إخوانه المجاهدين ليشتركوا معنا في الدفاع عنها ضدّ الحملة الأخيرة عليها، وقصّ عليّ بنفسه تفاصيل موته ثم نجاته.

ـ القصة الخامسة ـ

محمد الحشّاش

كنا في الغوطة، هدفاً للجواسيس من مختلف الطبقات... والأجناس...رجال ونساء، وأطفال وفقراء، ودراويش وكل ما يبتكره "قلم الجاسوسية" من أصناف وأنواع، ولم نسلم حتى من أصحاب العمائم المزيّفين...

وكانت الأوامر شديدة، واضحة، لا رحمة فيها ولا شفقة: لا تدعوا "غريباً" يمشي في الغوطة، وكانت "التعليمات" إلى دمشق أن لا يحاول أحد المجيء إلى الغوطة قبل مخابرتنا والحصول على جواز لدخولها، حتى لو كان ممن يرغبون المساهمة في الجهاد الوطني.

و"محكمة الاستقلال" في مركز القيادة، لم يكن لها عمل غير التحقيق مع الجواسيس ومحاكمتهم... وإعدام من تثبت خيانته، حتى بلغ عدد المحكومين في عدة أشهر أربعمائة جاسوس أعدموا جميعاً، وهكذا كان نشاط "الجاسوسية" ضدّنا يزداد يوماً بعد يوم مما دعانا إلى تشديد المراقبة وتوقيف كل شخص لأقل شبهة.

وكنت مدعياً عاماً لمحكمة الاستقلال، وكانت "الواردات" اليومية تزيد عن "الصادرات" إلى جهنم وبئس المصير... ويثلج ضميري اليوم بعد هذه السنين الطويلة، أننا لم نعدم بريئاً واحداً، وأن كل من أعدم كانت التهمة لاصقة به لصوقاً لا مجال للشك في أمره. من الغريب، أنني – وكنت أتولى التحقيق بنفسي – لم أعذّب أحداً أو أستعمل الشدّة مع واحد، فقد كان الإقرار المؤيد بالأدلة والبراهين يسبق السؤال تقريباً، وكان الجاسوس يسرد كل تفصيل عندما ألقي عليه السؤال الأول: لماذا أنت في الغوطة؟!! أمّا "محمد الحشّاش" فقد لعب دوره وأتعبني شهراً، وكان جاسوساً من طبقة لا بأس بها.

كنا في اجتماع المجلس الوطني الكبير، عندما جاءني قائد القوة التنفيذية لمحكمة الاستقلال، ممدوح بك العظم، وأسرّ في أذني، فقمت مسرعاً وإذا بشابين

من المجاهدين بينهما "درويش" في الستين من عمره ، لحية طويلة، وجه مستدير، عينان واسعتان لا نور فيهما. وكان طويل القامة، عريض المنكبين، ضخم الجثة، يلبس على رأسه طاقية "خضراء"، ويحمل في يده سلسلة طويلة قد ارتبط بها "قارب" صغير من الخشب الأسود، عليه ثياب بالية ولكنها خضراء وحمراء، منظر يبعث الضحك والتأمّل.

ــ ما هذا يا شباب؟

ــ هادا "داسوس" سيدي [أي جاسوس باللهجة العاميّة].

ــ أي والله يا بيك، هاد "دسيسة". و"داسوس" و"دسيسة وسياسة" كلمات في عرف الثائرين ذات معنى واحد، هو "الجاسوس".

ــ وأين قبضتم عليه!؟

ــ كمشو رئيسنا "أبو محمد" ببستان "الطويل" وأمرنا ناخدوا عا "الهجنة".

والهجنة واللجنة، في عرفهم أيضاً هو الخليط من القيادة ومحكمة الاستقلال.

صرفت الشابين بعد أن استلم "الضيف" قائد السجون السيد "أبو فهد عزيزية"، ولمّا انفض المجلس الوطني جئت بصاحبنا الدرويش إلى غرفة التحقيق.

هنا أرجو أن تصدق أيها القارىء العزيز بأني أنقل إليك كما في كل قصص الثورة الحقيقة التي لا خيال فيها ولا مبالغة.

سألته ما اسمك!؟

فأجاب: محمد.

ــ وابن من أنت؟

فردّ بلهجة المسكين الهادىء: ابن الياس الخوري.

قلت: محمد بن الياس الخوري!

قال: نعم.

هذا غير ممكن، فأنت إمّا "خرفان" أو مستهزئ، انتبه لنفسك وقل الحقيقة!؟

ــ الحقيقة يا سيدي اسمي أنطون بن حسين المصطفى.

ـــ ويحك أتلعب بعقلي أم تلعب بدمّك.

ـــ والله ما بحكي إلا الصحيح، دخيلك، دخيل الله، ودخيل الإنكليز والألمان والطليان واليونان والروس والإسپان والبورتغال والصرب والبلغار والأتراك والأمريكان و...

ـــ كفى هذا الهذيان. وصفعته صفعة قوية.وعاد يردد: دخيلك ودخيل...

وراح بسرعة البرق يرد أسماء دول العالم كأنه آلة ميكانيكية. ولو كنت مكانه لاحتجت إلى شهر لحفظ أسمائها لا لترديدها بهذه السرعة، وبدون لعثمة ... أو توقف.

قلت: هل تدخن؟ قال لا، ولكنني مغرم "بالحشيش". أنت "حشّاش" إذاً ?! نعم ومن "كبارهم".

قلت: اسمع!! إمّا أن تكون موزوناً بأقوالك، أو تعرّض حياتك للموت! فاصدقني الخبر، قد نرحم شيخوختك وفقرك، إن كنت جاسوساً فاعترف. أمّا إن ثابرت على إنكارك، فالويل لك إن ثبتت عليك الخيانة!

ـــ أنا لست بجاسوس، أنا درويش فقير، أدمن "الحشيش" وقد جئت إلى الغوطة استندي أكفّ المحسنين أمثالكم ...علني أجد عندكم الطعام والمأوى!!

ـــ أنت تعلم أننا في ثورة، وليس عندنا دار للعجزة، ولا "تكية" لإطعام المساكين. وأراك جاسوساً خطراً، فأعيد النصح عليك. والآن لنبدأ بالتحقيق جدياً:

ـــ قل الله ينصر فرنسة!

ـــ الله ينصرها.

ـــ قل الله يكسرها!?

ـــ لا ياسيدي، أنا شو دخلت، أنتم أخوة، الله لا يفرّق بيناتكم!!!

ـــ مع من نحن نتحارب اليوم?

ـــ مع فرنسة.

ـــ إذن كيف نكون معها أخوة!?

ـــ ما بعرف الله لا يفرّق بيناتكم...

وهوى "الكرباج" على جسمه فصاح باكياً وهو يردد نغمة دخيل ... إلى آخر دولة من دول الأرض.

وعبثاً حاولت، رغم كل الطرق وشتى الأساليب، أن أعرف حقيقة أمره، وإن كانت بعض أقواله وأعماله تفضح قسماً من حقيقته، وتجعل الشك قوياً في أمره.

ذلك أن هذه الطبقة من الناس مهما بالغتْ بالحذر والكتمان، لا بدّ لها أن تطمئن إلى أمثالها، وقد كان في السجن عدد من الجواسيس رهن التحقيق، فاطمأن إليهم قليلاً، وحدّثهم حديثاً نقلوه إليّ في اليوم الثاني زلفا وتقرّباً، وهو أنه يشجعهم على كسر الباب والفرار وأنه يشنّع الثورة وأهدافها، ويمجّد لهم أعمال فرنسة في سورية.

جعلت "محمد الحشّاش" شغلي الشاغل ولربما جعلني هو أداة تسلية لا أدري. كنت أصوّب الرصاص إلى رأسه. وأطلق النار قرب أذنه من المسدس أو البندقية، إرهاباً، فما نفعت حيلة ولا نجحت وسيلة، هو حيث كان في أول يوم، كلما ذاق العذاب ألواناً وأشكالاً، أمعن بالتظاهر بالبله والذلّ، والبكاء مع الانشودة المعروفة، انشودة الدول والحكومات...

وبعد نصف شهر من عذابي به وتعذيبي له... أطلق المغفور له مصطفى باشا السمّان القائد العام للغوطة والشمال سراحه، وكنت غائباً إذ ذاك عن مركز القيادة، فلمّا عدت ولم أجد محمد الحشّاش في السجن قال لي: لقد أفرجت عنه. قلت: ولكنه جاسوس. قال: لم يثبت عليه شيء بعد. قلت: إنه على كل حال "حشرة" من حشرات هذا المجتمع فلا بأس علينا إن أعدمناه.

كنت في العشرين من عمري، في عنفوان الشباب، وكانت عواطفي – في الثورة – كأنها قدّت من حديد، وكان إعدام الجاسوس في نظري لا يوازي ذبح طير، فنظر إليّ رحمه الله نظرة معناها: ما أقسى الشباب أيام الثورات، وقال: ومتى كنت وكيل الله على الأرض في عباده!؟

ومضت أيام وأنا أفكر بهذا المخلوق العجيب وكيف أفلت من يدي، مع قناعتي بأنه جاسوس، ولكن الدلائل القوية كانت تعوزني، وإذا بي أفاجأ "بتشريفه" مكبّلاً بالحديد يحيط به فارسان من فرسان الثورة قبضا عليه في منطقة "القلمون"

عندما عرفاه، ومعظم رجال الثورة عرفوا "محمد الحشّاش" في مركز القيادة وكان حديث سمرهم وتسلياتهم.

ــ أهلاً وسهلاً بضيفنا "المزمن" أنا في شوق إليك. أطلت غيابك عني يا صاح! فأطرق يفكر إطراقة من نجا من الموت ثم عاد إليه، وقد اصفر وجهه وارتجف من رأسه إلى قدمه، ولم يجب.

واستلمه قائد السجون ووضعه في غرفة منفردة بإشارة مني، واستحضرت الجواسيس الموقوفين إلى غرفتي ووعدتهم بالرحمة إن هم أصدقوني الخبر. وكان طلبي:

انتبهو جيداً هذه الليلة، واحفظوا كل كلمة يقولها.

قد يلام الإنسان على إفساد الضمائر بل يهاجَم من أجل ذلك، ولكننا في حالة ثورة، والجواسيس ليس لهم ضمائر تفسد.

فكّرت في تجربة شيطانية، تجربة عنيفة ممقوتة في حالات السلم، ولكنها أوصلتني إلى حقيقة ما أعتقد بهذا الإنسان.

ولمّا انتصف الليل، وخيم السكون الرهيب، جمعت القوّة التنفيذية وعدد رجالها أربعون من شباب "دوما"[٢٨] الأبطال، ومثّلت هجوماً مفاجئاً، وكنت أصيح أثناءه وأعطي الأوامر بالفرنسية. حتى خيّل لصاحبنا أن الجيش الفرنسي قد اقتحم مقرّ القيادة. وبعد نصف ساعة من أصوات الطلقات والقنابل اليدوية – وكنت وضعته بين رفاقه – استدعيتهم جميعاً، فإذا بهم يجمعون واحداً بعد الآخر، على أنه نهض كالمجنون يريد كسر أغلال السجن وأخذ يصيح بهم ويدعوهم إلى مساعدته والانضمام إلى المهاجمين، ويحدثهم حديثاً طويلاً فيه حدّة وعصبية، وحماس وعزم، عن كل شيء وضد الثورة وضد الثائرين.

وفي الصباح استدعيت "سعيد اليماني" رحمه الله، وقلت له: هات "الكهرباء" هات آلة تفجير الألغام وحوّر جهازها حتى تؤثر في الإنسان.

وكان المجلس الوطني منعقداً، فجئت إلى قائدي منتصراً:

- إن محمد الحشّاش جاسوس وخطر... وسأقدّمه إليكم الآن ليعترف أمامكم بما فعل.

وأدخلت صاحبنا... ووراءه آلة الكهرباء. وهنا أقف لحظة لأشهد مجدداً بنبل قائدنا المغفور له، فقد ثار في وجهي :

-أنحن في عهد "محاكم التفتيش" أم أن قلبك من جلمود الصخر!؟

-لا هذا ولا ذاك، ولكننا نجاهد في سبيل البلاد. والقتل أنفى للقتل، وكل مجاهد تساوي حياته آلافاً من هذه الأرواح الخبيثة. أنا مجاهد، ومدّعي عام محكمة الاستقلال، وهذا الوصف يوجب علي المحافظة على سلامة الثورة، وحفظ أسرارها ومكافحة الجاسوسية بأقصى الشدة وأقسى الأساليب...

ووضعت "الشريط" في يديه، ونصحته أن يتكلم الحقيقة، فعاد لنغمته: دخيل الله ودخيلك، دخيل الإنكليز...و... إلى آخر الأغنية نفسها.

ضغطت على "الزرّ" ضغطاً خفيفاً فقفز قفزة من مسّه التيار حقيقة لا مجازاً... وصاح: إرفع إصبعك وأنا أتكلم.

ــ هات الحقيقة ولا تراوغ.

ــ نعم أنا جاسوس منذ بدء الثورة، أدخلني "فلان" في زمر الجواسيس.

ــ ما هي أوصاف من ذكرت؟

فعدّدها وسرد كل التفصيلات التي يطمئن الضمير إلى صدقها.

ــ زرت الغوطة مراراً وكانت مهمتي محصورة في تتبّع أخبار الاجتماعات الكبرى لأعود حالاً وأخبر عنها.

ــ ما هي الاجتماعات التي أخبرت عنها!؟

ــ ولا واحدة لأنني لم أوفّق!

وقسوت "بضغطة" على الزرّ الكهربائي فإذا به يقفز في الهواء متراً ثم يقع على الأرض مع الكرسي والمنضدة، جارّاً آلة الكهرباء أيضاً .

ولمّا أفاق من هذه الرجفة قال: فك الشريط عن يدي فقد لقيتُ حتفي، ورماني مصيري بيد لم أستطع الإفلات منها. وسرد كل مغامراته وذكّرني بكل اجتماع أطلقت علينا خلاله قنابل المدافع والطيارات !!!

وعندما وقف يستقبل رصاص القوة التنفيذية رفض أن "تعصب" عيناه أو "يربط" إلى شجرة...

ــ أطلقوا النار فلست أخشى الموت. هذا مصير كل جاسوس.

ـــ القصة السادسة ـــ

فهد عمّار

عفواً قرائي الأعزاء، إذا قدمت لكم اليوم، قصة تكشف عن الثورة بعض أستارها وتعطيكم صورة صادقة عما كنا نلاقيه من صعوبات تحتاج لتذليلها إلى صبر طويل، وروية بالغة، ذلك أن النفوس مهما سمت الغاية التي تسعى إليها، وتقدست المهمة التي تضطلع بأعبائها، لا تأمن العثار أحياناً، ولا تقوى على ضبط شكيمة الأهواء الشخصية حتى تزل بها القدم، فتجرف المصلحة الوطنية معها.

وفي الثورات تبرز خفايا النفوس أيضاً، وتلعب المطامع دورها فلا تقوى نار الوطنية اللاهبة على صهرها، ولا يستطيع المثل الأعلى أن يطهرها وإن خفّف من حدّتها... كذلك كان شأننا في الغوطة، لم تسلم الثورة من رجال – لبوا نداء الوطن وجاهدوا في سبيل البلاد – ولكنهم لم يسلموا من تحكّم أهوائهم، ولا كظموا غيظهم من حيث توهموا، وراحوا يتحينون الفرص للانتقام أو لاحتلال المركز الذي يعتقدون أنهم أهل له، ولو لوثوا وجه الثورة الناصع، أو شوهوا سمعتها المشرّفة.

والمؤرخ المنصف تقتضيه الأمانة في صدق الرواية ويتطلب منه المجتمع وصف الحقيقة وإن جرحت، وتسجيل الحوادث كما وقعت، والثورة ملك الأمّة بأجمعها، وتراث الأجيال القادمة، بكل ما فيها من عظات أو هنات، يتّخذ منها جيلنا الجديد درساً عملياً يفيد منه ذكريات مجيدة، وصفحات بطولة خالدة، ويستخرج من هذا التاريخ اللامع، ما يراه جديراً أن يكون زاده في جهاده الطويل، وعدّته في مقارعة الخطوب ومنازلتها.

واليوم وبعد عشرين عاماً من الثورة تنقضي لا نذيع سرّاً إذا قلنا أن قادتها ورجالها المفكرين، لم يكونوا جميعاً على تفاهم تام، ولا كانت آراؤهم متّفقة ومنسجمة في أسلوب واحد للعمل، ولا سلمت نفوسهم من ذكريات الماضي وما كان فيه من خصومات، أو نزعات متباينة أو أحقاد، ولا استطاعت الثورة أن تطغي بجلالها وجمالها على كل ما في القلوب من ضغائن، وأن تمحو كل ما فيها من ذكريات.

وهكذا كنّا نحن الشباب ننظر بقلوب واجفة إلى هذه الحالة المؤلمة، ونزجي الأرواح إلى أتون الجهاد المتّقد المضطرم، والحزن يصهر نفوسنا لوعة وأسى على هذا المصير.

والقصة التي أقدّمها اليوم – وإن كانت صغيرة تافهة – لكنها تعطي فكرة واضحة عن اختلاف النزعات والميول...

كان "فهد عمّار" من المجاهدين وفي صفوف عصابة مأذنة الشحم[٢٩]، وسيق إلى محكمة الاستقلال للتحقيق معه عن بعض الأمور، وكانت تستلزم التوقيف فأوقف.

فلمّا بلغ الخبر زعيماً من زعماء الثورة، وكان لا يضمر حبّاً للقائمين على قيادتها ومجلسها الوطني ومحكمة الاستقلال فيها، رأى الفرصة الذهبية سانحة لتحقيق أحلامه في إضعاف نفوذ القيادة والحطّ من كرامتها. فاستدعى إليه عصابة مأذنة الشحم وعلى رأسها المرحوم "أبو يوسف الفوّال"، وما زال يغريهم ويوغر صدورهم ويقسم لهم أغلظ الإيمان أن المجاهد لا يجوز أن يسجن، مهما كانت التهمة الموجّهة إليه، وأنه من العار أن تسكت عصابته عن هذه الإهانة... وأن الوطنية الصحيحة أن يهاجموا مقرّ القيادة بالقوة وباستعمال النار إذا لزم الأمر، لإنقاذ المجاهد، وأن هذه القيادة ومن يقوم عليها ومن فيها من الشباب، إن هم إلا رجال حديثو العهد بالوطنية والثورة فلا يجوز السكوت عن أعمالهم. وهكذا ما زال بهم، حتى تلظّت أنوفهم واضطرمت نفوسهم وخدعتهم الأقوال. فاندفعوا إلى مقر القيادة ثائرين مهتاجين.

وكنت أرسلت من يستطلع الخبر من رجال القوة التنفيذية، فاستطاع أن يسمع كل ما دار من حديث، وعاد مسرعاً على صهوة جواده قبل وصولهم بزمن بعيد. أيقظني من نومي وكانت الشمس لم تشرق بعد، وأطلعني على جلية الأمر، فنهضت كالمجنون مقسماً أن أردّ هذه العصابة إلى من أرسلها محمّلة على آلة حدباء...

جمعت القوة التنفيذية وشباب العهد، وجعلتهم إلى جانب الطريق الذي ستمرّ فيه العصابة إلينا، وكل واحد منّا اتّخذ شجرة تخفيه عن العيون، وانتظرنا قدومهم والبنادق مصوّبة...فلما صاروا على بعد مئة متر، صحا المرحوم قائدنا على

أصواتهم وأهازيجهم وأسرع ينظر من نافذة غرفته وكانت في الطابق العلوي من البناء فرأهم ورآنا، وكان على علم من الأمس، بما يدور في الخفاء وما يحاك، أسرع حالاً إلينا وأمرنا أن نخرج من "مخابئنا" فصدعنا للأمر، ووقفنا بالقرب منه حتى إذا اقتربت العصابة تلقاهم بالبشر والابتسام، فأثّرت فيهم هذه الظاهرة الطيبة و"بردت" حماستهم، وراح زعيمهم يخاطب القائد بلهجة الرجاء، وأنه جاء بمجموع العصابة، على أصول العشائر "جاهه" راجياً أن لا يخيّب أمله، وأن يطلق سراح فهد عمّار.

وخاطبهم القائد خطاباً قيّماً وأفهمهم الخطأ الفادح بل الخيانة الوطنية التي كادوا أن يرتكبوها، وأن اتحاد القوى أمر جوهري في هذه الظروف العصيبة، وأن عليهم أن يكونوا مثالاً لتقدير الأمور حقّ قدرها. وأن المجاهد إذا أخطأ فمن حق الثورة أن توقفه وتعاقبه.

ثم لبّى رجاءهم وأعطاهم فهد عمّار بين هتافهم وسرورهم ووعودهم الجازمة أنهم سيكونون بعد اليوم قدوة حسنة ومثالاً نبيلاً. وقد كانوا .

ــ القصة السابعة ــ

أصداء الغوطة

إذا كان صحيحاً أن الماضي يتبع المرء فأصحّ منه أن الذكريات العذبة يتبعها المرء أيضاً فلا هي تفرّ منه ولا هو يملّ ترديدها بل يظل يغذيها من روحه ونفسه وحسّه حتى تتمثّل له في كل سانحة ويكاد يلمسها لمساً. فكيف بها إذا كانت فوق ذلك ذكريات مجد وصفحات بطولة وأغاريد حياة كانت تملأ سمع الدنيا، بل زغردة الخلود في أذن هذا العصر، ومعجزة الوطنية الصحيحة في سجل الفخر .

تلك هي أصداء الغوطة يوم كانت تعجّ بالغُرِّ الميامين من رجال هذه الأمة شيباً وشبّاناً، هجروا حياة النعيم لا استقلال فيه، إلى حياة الشقاء في ظل الحرية المطلقة...

هذه هي الذكريات التي تغذّيني وأغذّيها تتردد في أعماق روحي ألحانها الشعرية فتبعثها حيّة، جديدة، كأنني أراها، وألمسها، وأعيش معها فأعود بها إلى

أيامها الأولى، قبل ثمانية عشر عاماً لأعيش لحظات هانئات في ظلال أشجار الجوز الباسقة والمشمش المتواضعة فأجلس إلى الساقية الصغيرة أسمعها حنيني وأسمع منها شكواها فلا يعكّر علينا هذا العيش الحلو الصافي غير "زغردة" قنبلة من مدفع أو طائرة حتى إذا استلقيت، وانفجرت، عدت أحصي أضرارها فإذا هو غصن رطيب يسقط عن أمّه أو جانح دجاجة (يطير) فتتلوى جريحة وصغيراتها (يسقسقن) خلفها هالعات... لك الله، إنها الحرب وهذا مصير كل محارب!!!!

أو كأنني اليوم أسمع نشيدنا، نحن فتيان العهد، فإذا بكل ما في الغوطة من سماء وماء وشجر وطير وإنسان ينقلب في نظري وسمعي وحسّي إلى صدى علوي، إلهي يهتف بنا ويهتف معنا:

نحن جند الله شبّان البلاد نكره الذلّ ونأبى الاضطهاد

وإذا بالقلوب تكاد تقفز من أماكنها، وإذا بكل هذا (الخليط) من عروبة ومجد، واستقلال تام ووحدة عربية، وعز قومي يتراقص أمام أعيننا ويتغلغل في صميم أفئدتنا ليجعلنا نرقص على لهب شعور لا أعرف كنهه ولا أستطيع وصفه!!!

وفي غمرة هذه الغيبوبة المقدّسة أسمع صوت الرصاص يدوي، وزغاريد النسوة يتعالى: وصلت نجدة كبرى يقودها "عادل بك النكدي"[٣٠]... ماذا، أستاذي الكبير يعود من سويسرة، بلاد الحب والجمال، إلى جحيم الشقاء والقتال!؟

فأسرع الخطى لآعانقه وأقبّله غير مصدّق ما تراه عيني: أنت هنا، من جبال سويسرة الخضراء، من مراتعها الغنّاء، من مرابعها المشرقة، من أحضان البحيرة العذراء من جنيف، وغيدها اللعوب، من حياة كلها مرح وجمال، إلى الغوطة، إلى الثورة، إلى السلاح ودخان البارود، إلى الخبز اليابس والنوم على التراب، تحت الشجر، إلى التعب إلى السهر، ما الذي دعاك إلى هذا، أي شعور نبيل، أية نفس مباركة، أي قلب هذا الذي يتّقد بين جوانحك، أي شعلة من نار الوطنية تتأجّج في طيات هذا الجسم، أي روح عبقرية هذا الذي يطير بك من سماء جنيف إلى أرض الوطن؟

سمع كلماتي بقلبه، بروحه، بعبقريته، الفذة ولم يسمعها بأذنه، فابتسم ابتسامة فتنت من قبلي كثيرات...وقال لا تعجب فكل ليلة أقضيها هنا في ظل هذه الأشجار القائمة تعادل الحياة كلها في سويسرة الغنّاء! كل حشرة أقتلها على ظفري يرنّ في أذني صداها محبّباً أكثر من رنين القبلة الفاتنة على ثغر فتاة من جنيف الهيفاء.

أيها الشهيد العظيم! ما رأيت أروع منك منظراً يوم جُرحت – قبل استشهادك بأيام – ثم عدت إلى ميدان الفخار، لتمهر الحرية بأشرف مهر وأغلى صداق!!

إن صدى نبراتك ليرن في قلبي ما عشت، وأن مثالك النبيل خير ما تتخذه الأمهات أغنية عذبة، عند مهد الأطفال تتجاوب أسماعهم وقلوبهم مدى الأجيال.

* * * * *

الهوامش

(١) **الأمير أحمد الشهابي** (١٩٠٥ ــ ١٩٧٩): محامي، من مجاهدي الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ ــ ١٩٢٧). تلقى علومه في مدرسة الآباء اللعازريين بدمشق، والمعهد العلماني ببيروت. تخرّج من معهد الحقوق بدمشق، التحق بالثورة في منطقة الغوطة وحمل السلاح وشارك في معاركها ثم صار خلالها مدّعي عام محكمة الاستقلال (محكمة الثورة). انتمى إلى الكشّاف المسلم في بيروت. اشترك في تأسيس كشّاف سورية وصار عضواً في اللجنة التنفيذية العليا. كان من مؤسسي عصبة العمل القومي. عيّن نائباً عاماً في السويداء عام ١٩٥٣، ثم في دير الزور ١٩٥٧ ثم في الحسكة (من هم في العالم العربي ١٩٥٧، ص ٣٥٠. تاريخ الثورات السورية ٤٧٤).

(٢) **د. شكيب الجابري** (١٩١٢ ــ ١٩٩٦): دكتور في العلوم ودبلوم في هندسة الكيمياء والتعدين من جنيف بسويسرا وبرلين بألمانيا، روائي، مارس العمل الديبلوماسي فعيّن عام ١٩٣١ سكرتيراً مؤقتاً في جمعية الأمم المتحدة بجنيف، ثم أستاذاً في تجهيز ودار معلمي حلب عام ١٩٣٧، ثم مديراً عاماً للمطبوعات والإذاعة السورية، عام ١٩٤٣، ثم مديراً للمعادن ومراقباً عاماً للشركات ذات الامتياز عام ١٩٤٥، ثم أسس "مكتب القطن السوري"، وكان يمارس العمل الإعلامي فأصدر أواخر الأربعينات من القرن العشرين مجلة "أصداء" ، والصناعي، توفي في الرياض (إتمام الأعلام ١٢٣.

(٣) **حسن الخرّاط** (١٨٦١ ــ ١٩٢٥): من زعماء المجاهدين الشهداء في السورية الكبرى، ولد في حيّ الشاغور بدمشق، شارك في عدد من المعارك في الغوطة حيث جرح في معركة الزور الأولى وفي معركة الزور الثانية، وقام في معركة النبك الأولى، ودخل دمشق مع فريق من المجاهدين فاحتل بعض الأحياء وقام بحراسة القصّاع [حي المسيحيين] وحماه من التعديات. شنق الفرنسيون ولده فخري تشفياً من الأب بعد استشهاده (تاريخ الثورات السورية ٣٥٤).

(٤) **عبد القادر العظم** (١٨٨١ ــ كان حياً عام ١٩٧٥): ولد في دمشق وفيها تلقى علومه الأساسية، ووتلقى علومه الثانوية والعالية من المكتب الملكي الشاهاني في الأستانة [إستنبول] عام ١٩٠٤م، نفاه جمال باشا السفّاح إلى بروسه، عاد إلى دمشق عام ١٩١٩ حيث استلم منصب مدير مطبوعات سورية أيام الملك فيصل، ثم صار وزيراً للمالية في حكومة الداماد أحمد نامي بك ١٩٢٦، وسمّي مديراً لمدرسة الحقوق ١٩٢٠، بعدها رئيساً للجامعة السورية ١٠٣٦ مع الاحتفاظ بمديرية مدرسة الحقوق، وفي عام ١٩٤١ صار رئيساً لمجلس الشورى، بعدها مفوض الحكومة السورية لدى شركة حصر التبغ والتنباك، وفصله عنها حسني الزعيم. يحمل وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى (من هو في سورية ١٩٤٩، ص ٣٠٥، من هم في العالم العربي ١٩٥٧ ص ٤٣٥).

(٥) **دو جوفنيل**: هنري دي جوفنيل، المفوض السامي الفرنسي في سورية من ٢ كانون الثاني ١٩٢٥ ــ ٢٨ نيسان ١٩٢٦ (تقويم المطبعة الكاثوليكية، ص ٨٢).

(٦٥) **فارس الخوري** (١٨٧٣ ــ ١٩٦٢): من رجالات السياسة والأدب في سورية، درس في لبنان، استقرّ في دمشق ترجماناً للقنصلية الإنكليزية خلال السنوات ١٩٠٢ ــ ١٩٠٨، انتخب عضواً في مجلس "المبعوثان" العثماني عام ١٩١٢، احترف المحاماة، سجنه الأتراك بتهمة التآمر على الدولة قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨)، عيّن أستاذاً لعلم المالية في معهد الحقوق بالجامعة السورية ومن مقولاته الشهيرة (خزينة الدولة جيوب رعاياها)، انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي ١٩١٩، ثم عُيّن وزيراً للمالية، نفاه الفرنسيون إلى جزيرة "أرواد"، انتخب رئيساً لمجلس النواب عام ١٩٣٦ وأعيد انتخابه أكثر من مرّة خلال السنوات (١٩٤٣ ــ ١٩٤٩)، صار رئيساً لمجلس الوزراء ١٩٤٤ ــ ١٩٤٥، مثّل سورية في منظمة الأمم المتحدة، توفي بدمشق (الأعلام ١٢٨/٥. أوراق فارس الخوري، ج١).

(٧) **صيدا ومرجعيون وحاصبيا**: من مدن وبلدات لبنان الجنوبي.

(٨) **صبري العسلي** (١٩٠٣ ــ ١٩٧٧): من مجاهدي الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ ــ ١٩٢٧)، رئيس وزراء سورية عدة مرات أولها ١٩٥٤ حتى قيام الوحدة بين مصر وسورية

١٩٥٨، نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة، توفي بدمشق (إتمام الأعلام ١٣٠. تاريخ الثورات السورية ٤٨٦).

(٩) **نسيب شهاب** (١٨٩٦ ــ كان حيّاً عام ١٩٥٧): من مجاهدي الثورة السورية، ولد بصيدا، درس الحقوق في معهد الحقوق بدمشق، عُيّن في السلك الخارجي السوري حيث تنقّل كسكرتير أول في مفوضية "القاهرة"، وكقائم بالأعمال السوري في "جدّة" عام ١٩٤٩، بعدها في "بغداد" عام ١٩٥٠، ثم "القاهرة" بنفس العام، ثم نقل إلى ملاك وزارة الداخلية وصار رئيساً للهيئة التفتيشية فيها عام ١٩٥٢، وفي عام ١٩٥٤ أصبح أميناً عاماً لها (من هم في العالم العربي ١٩٥٧ ص ٣٤٩).

(١٠) **فائق العسلي** (١٨٩٤ ــ ١٩٢٦): من شهداء الثورة السورية الكبرى، كاتب وأديب معروف، ولد بدمشق ونال شهادة معهد الحقوق فيها، نفاه الأتراك مع عائلته إلى الأناضول، عُيّن رئيساً لديوان مديرية الشرطة العامة بدمشق ١٩٢٥ لكنه آثر تركها والالتحاق بالثورة في نفس العام، خاض معارك الغوطة، واستشهد مع ابن عمه الشهيد حكمت العسلي والشهيد أحمد مريود في معركة "جبّاتا الخشب" يوم ٣٠ أيار ١٩٢٦ (تاريخ الثورات السورية٤٨٦).

(١١) **الأمير فائز الشهابي** (... ــ ١٩٤٦): فائز بن الأمير علي الفارس، كان رئيساً لديوان وزارة الداخلية ثم محافظاً لدمشق، اشتهر بمواقفه الوطنية ضد المستعمر الفرنسي، توفي بدمشق (تاريخ الثورات السورية ٤٧٣).

(١٢) **سيف الدين المأمون** (١٩٠٥ ــ كان حيّاً عام ١٩٥٧): دكتور في الحقوق، محامي، ولد في مدينة حمص بسورية، تلقى علومه الثانوية في المدرسة العلمانية ببيروت، ودرس الحقوق بمعهد الحقوق العربي بدمشق ثم في "مونبلييه" بفرنسا، وفي جنيف بسويسرا حيث تخصص في الشؤون الجزائية والدستورية. بدأ حياته بالصحافة والمحاماة، لكنه آثر المحاماة، عُرضت عليه مناصب كثيرة كان يعتذر عنها (من هم في العالم العربي ١٩٥٧ ص ٥٦١).

(١٣) **عادل حتاحت** (... ــ ...): قاضي ومفتش في وزارة العدلية، شغل عدة وظائف قضائية هامة وسبق له أن انتدب مديراً إقليمياً لمصلحة الميرة [التموين] في سورية الجنوبية ورئيساً للجنة التحقيق فيها، وصار مفتشاً في وزارة العدلية مع لقب نائب عام لدى محكمة الاستئناف في شهر أيّار من عام ١٩٤٨ (من هو في سورية ١٩٤٩ ص ١٠٣).

(١٤) **السنجقدار**: محلّة بين ساحة المرجة وقلعة دمشق (معالم دمشق التاريخية ٢٩٦).

(١٥) **الدكتور عبد الرحمن الشهبندر** (١٨٨٢م - ١٩٤٠م): درس الطب في الجامعة الأمريكية ببيروت، شغل منصب وزير الخارجية في سورية ١٩٢٠ وعمل في الحقل الوطني، واغتيل في

عيادته بدمشق يوم الأحد ٧ تموز ١٩٤٠م (الأعلام ٣٠٨/٣، سورية والانتداب الفرنسي ٣٠٧).

(١٦) **المشنّف**: بلدة في جبل العرب، مركز ناحية تتبع منطقة السويداء جنوب سورية (المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ٢٦٩/٥).

(١٧) **الصّفاء**: وتعرف بالصفا، مرتفعات بركانية وعرة في جبل العرب وبادية الشام جنوب سورية، تتبع ناحية "الضّمير" من منطقة دوما بمحافظة ريف دمشق (المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ٥٠٢/١، ١٢٩/٤).

(١٨) **الشرّ**: المقصود به الحرب والقتال.

(١٩) **مصطفى وصفي السمّان** (١٨٨٨ ــ ١٩٤٤): القائد العام لثوار الغوطة في الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ ــ ١٩٢٧)، ولد في حي العمارة بدمشق، والتحق بالمدرسة الحربية العليا في اسطنبول عام ١٩٠٥، ثم تخرّج من مدرسة الأركان الحربية عام ١٩١٣ برتبة رئيس [نقيب] واشترك في حرب البلقان ورومانية والدردنيل، وكان يحسن التركية والفرنسية والألمانية إلى جانب العربية، ويلمّ بالانكليزية والإيطالية، ثم صار في هيئة أركان القيادة العامة للجيش التركي، وكان من مؤسسي حزب "العهد العربي" في الآستانة. عاد إلى دمشق بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ فعين مديراً للشعبة الأولى [الأركان الحربية] في عهد الحكومة العربية وبقي في هذا المنصب حتى دخول الفرنسيين حيث أحيل على التقاعد ونفي. التحق بالثورة السورية الكبرى في غوطة دمشق، ١٩٢٥ وحضر معاركها. توفي بدمشق ودفن في مقبرة الباب الصغير (تاريخ الثورات السورية ٥٥٨).

(٢٠) **جبّاتا الخشب**: من قرى الجولان بسورية، تتبع ناحية "خان أرينبة"، محافظة القنيطرة (المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ٦١٠/٢).

(٢١) **أحمد مريود** (١٨٨٦ ــ ١٩٢٦): قائد ثورة الجولان وجنوب لبنان وشرق الأردن، ولد في قرية جبّاتا الخشب [الهامش ٢٠] ونشأ فيها، درس في القنيطرة ثم في المدرسة الرشدية والإعدادية بدمشق. خطط أحمد مريود لاغتيال الجنرال "غورو" في طريقه إلى القنيطرة عام ١٩٢١. حكمه الفرنسيون بالإعدام، استشهد في معركة جبّاتا الخشب مع إخوان له ببطولة نادرة (أحمد مريود ٢٥، تاريخ الثورات السورية ٣٩١).

(٢٢) **الأمير عادل أرسلان** (١٨٨٧ ــ ١٩٥٤): أمير السيف والقلم، ولد في الشويفات بلبنان، وتعلم الفرنسية في مدرسة الحكمة، والعربية على يد المعلم بطرس البستاني، والتركية في الكلية الإسلامية، وتابع تحصيله العالي بكلية الحقوق والإدارة العامة في اسطنبول. عيّن في وزارة الداخلية ببيروت. انتخب نائباً عن جبل لبنان في مجلس المبعوثان العثماني [المجلس النيابي]

فسافر إلى اسطنبول ١٩١٦ ــ ١٩١٨ ومثل الشباب العربي فيه. انضم إلى "الجمعية القحطانية" أولى الجمعيات العربية السرّية. التحق بالأمير فيصل بن الحسين في دمشق وصار سكرتيره الخاص عام ١٩١٨. حكمته فرنسا بالإعدام غيابياً ثلاث مرات الأولى عام ١٩٢٠، والثانية ١٩٢١، والثالثة ١٩٢٥. إلتحق بالثورة السورية الكبرى وتولى قيادة "إقليم البلاّن". سافر إلى أوروبا بعد انتهاء الثورة ١٩٢٧ ثم عاد إلى دمشق، تولى منصب الوزير المفوض لسورية في أنقرة ١٩٣٧ ــ ١٩٣٨، ثم تقلد وزارة المعارف مرتين ١٩٤٦، و١٩٤٧، انتخب نائباً عن الجولان ١٩٤٧، رأس الوفد السوري إلى الأمم المتحدة ١٩٤٩. توفي في بيروت (مذكرات الأمير عادل أرسلان، تاريخ الثورات السورية ٢٤٠).

(٢٣) **القنيطرة**: كبرى مدن الجولان بسورية ومركز محافظة القنيطرة (المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ٦١٦/٤).

(٢٤) **زحلة**: مدينة لبنانية وقاعدة محافظة البقاع (المنجد في الأعلام ٢٧٨).

(٢٥) **حَضَرْ**: قرية في الجولان بسورية، تتبع ناحية خان أرينبة، محافظة القنيطرة (المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ٨١/٣).

(٢٦) **حكمت العسلي** (١٨٨٢ ــ ١٩٢٦): ولد بدمشق، عمل في الزراعة مع والده، نفي مع أسرته إلى الأناضول إثر إعدام شقيقه الشهيد شكري العسلي (من شهداء القافلة الثانية بدمشق في ٦ أيار ١٩١٦)، فرّ من المنفى والتحق بالثورة العربية الكبرى وجيش الأمير فيصل حيث دخل دمشق معه، ثم التحق بالثورة السورية الكبرى وخاض معارك الغوطة، استشهد في معركة "جبّاتا الخشب" (تاريخ الثورات السورية٤٨٤).

(٢٧) **نظير النشواتي أو النشيواتي** (١٨٩٢ ــ ١٩٥٤م): من الثوار الأشاوس ضد الانتداب الفرنسي في مدينة حمص وله وقائع عجيبة غريبة معهم، عمل في "معمل النشاء" الذي يملكه والده. توفي بالسكتة القلبية (تاريخ الثورات السورية: أدهم الجندي ٣٠٣).

(٢٨) **دُوْما**: مدينة في غوطة دمشق الشرقية بمحافظة ريف دمشق (المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ٣٧٥/٣).

(٢٩) **عصابة مأذنة الشحم**: العصابة تسمية تطلق على كل مجموعة من المجاهدين الذين ينتسبون إلى حي من أحياء دمشق في الثورة السورية الكبرى، فهناك عصابة الميدان، وعصابة الشاغور.... والعصابة لغة: الجماعة من الرجال أو الخيل أو الطير من جذر (ع ص ب).

(٣٠) **عادل النكدي** (١٨٩٣ ــ ١٩٢٦): ولد في "عبية" بلبنان وفيها تلقى علومه الابتدائية وأكمل تحصيله بالكلية العلمية في بيروت ١٩١٣، انتسب إلى كلية الحقوق ببيروت وأكمل دراسته في سويسرا وفرنسا وتخرج عام ١٩٢٥ وعاد إلى دمشق ليلتحق بالثورة السورية الكبرى في الغوطة وخاض معاركها خصوصاً معركة "ببيلا" واستشهد في معركة "سيدي الناس" التي يُطلق عليها اسم "معركة سيدي كناس"، ودفن أولاً بقرية "ببيلا" ضمن مراسم حضرها قائد الغوطة مصطفى وصفي السمّان، ثم نُقلت رفاته عام ١٩٤٦ إلى بلدته "عبية" بلبنان (تاريخ الثورات السورية ٥٣٥).

المراجع

- من هم في العالم العربي: مركز الدراسات السورية والعربية، ج١ سورية، دمشق ١٩٥٧
- تاريخ الثورات السورية: أدهم الجندي، مطبعة الاتحاد، دمشق ١٩٦٠
- من هو في سورية ١٩٤٩، الوكالة العربية للنشر والدعاية، دمشق
- تقويم المطبعة الكاثوليكية ١٩٢٩، بيروت
- الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط ١١، بيروت ١٩٩٥
- أوراق فارس الخوري، ج١، دار طلاس، دمشق ١٩٨٩
- إتمام الأعلام، د. نزار أباظة ومحمد رياض المالح، دار صادر، بيروت ١٩٩٩
- معالم دمشق التاريخية: أحمد إيبش ود. قتيبة الشهابي، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٦
- المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري: مركز الدراسات العسكرية، دمشق ١٩٩٠
- سورية والانتداب الفرنسي: يوسف الحكيم، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٨٣
- أحمد مريود: محمود عبيدات، دار رياض الريس، لندن ١٩٩٧
- مذكرات الأمير عادل أرسلان: تحقيق د. يوسف الإيبش، الدار التقدمية، بيروت ١٩٨٣
- المنجد في الأعلام، دار المشرق، بيروت ١٩٩٢

من زعماء الثورة السورية الكبرى

الشيخ صالح العلي قائد ثورة جبال اللاذقية

إبراهيم هنانو قائد ثورة الشمال

فوزي القاوقجي قائد ثورة حماة

سلطان باشا الأطرش القائد العام للثورة

مصطفى وصفي السمّان قائد ثورة الغوطة

أحمد مريود قائد ثورة الجولان

حسن الخرّاط

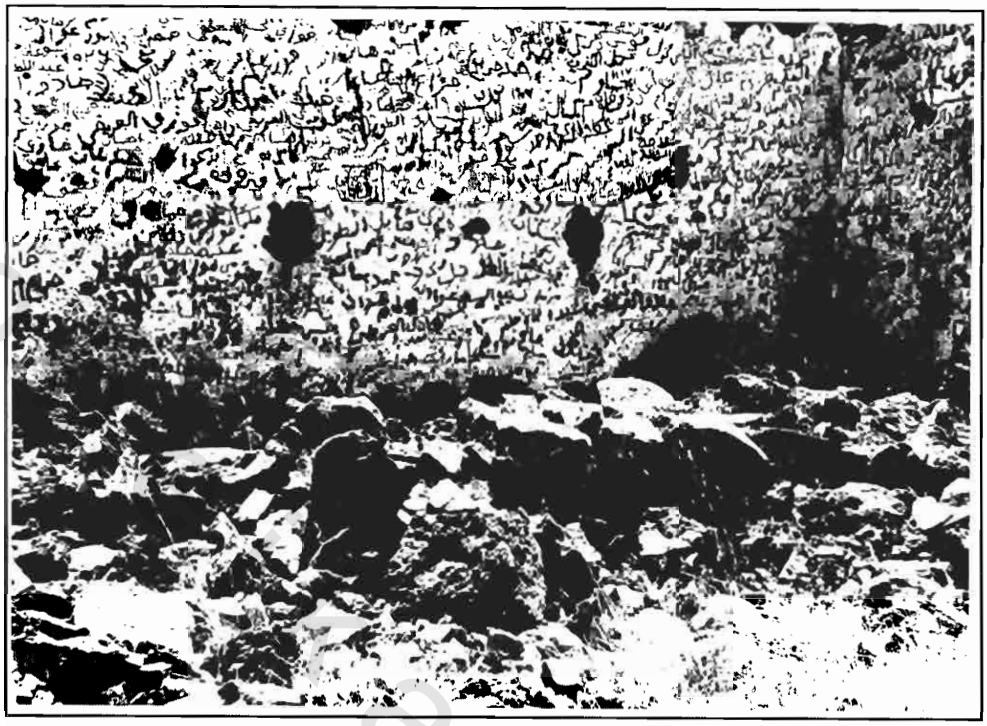

قلاووش قلعة صلخد وعلى جدرانه حفرت أسماء المعتقلين فيه من الثوار (بعدسة المؤلف عام ١٩٧٦)

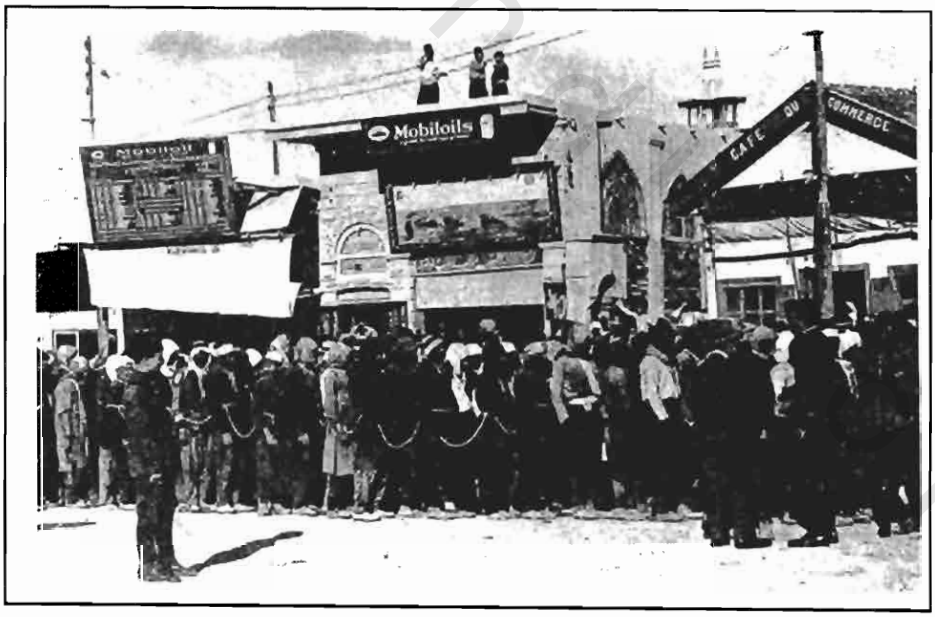

فلاحو الغوطة الأبرياء تسوقهم القوات الفرنسية (سوق النعاج) مكبلين في ساحة المرجة خلال الثورة السورية الكبرى لإرهاب الناس

فوزي القاوقجي مع بعض رجاله من الثوار

الثوار في حواكير الصبّارة